لوحة من ثلاثة أحرف

هدى خورشيد

شعور غريب بالسعادة يتلقفني وكأنه شخص عزيز، قد غاب عنه قرونًا مقفرة فاشتقت إليه, أغمض عيني بقوة وأستمتع بشعور الدفء الذي يملأني حد التخمة بين ذراعيه, أشعر بنبضاته تضرب فوق ظهري ويداه تحيط خصري بينما قدماه تكبل حركة قدميَّ, جسدي مستكين في أحضانه وكأنه أخيرًا قد وجد موطنه, رغبة مجنونة تراودني في أن أصرخ الآن وأخبر العالم كله كم أحبه, أن أستدير وأقبله فيتململ من امرأته المجنونة قبل أن يبتسم كالعادة ويخبرني كم يستلذ بالوقوع في الحب مع طفلة متهورة مثلي ..ولكن لا, اليوم بالأخص لا أريده أن يستيقظ, ليس الآن, فأنا أريد مفاجئته بما قد خططت له بالفعل, أعلم بأن اليوم سيكون حدًا فاصلًا في حياتنا, شيء ما سيتغير, قلبي يخفق لمجرد الفكرة, رفعت أنامله أقبلها غير قادرة على منع رغبتي في ذلك, تلك الأنامل التي ربتت فوق خصلاتي بحنو, وجذبتني لأحضانه بتملك, والتي تفننت في صنع القهوة التي أحبها كل صباح, أنامل حطمت بقسوة أوجه بضع ثملين حاولوا التجرؤ عليَّ في تلك الليلة من شباط مذ ثلاثة أعوام وكان هذا لقاءنا الأول, ولم ندرك حينها بأنها البداية وأن القدر يحيك حولنا تعويذته الخفية ويربط أرواحنا بشرائط كيوبيد الحمراء, حيث نشأت بيننا علاقة لم تتعد النظرات, حلمت بهِ ليلتها وكأن السماء سمعت لأمنياتي السرية, توالت الصدف بيننا, نفس المكتبة, نفس المقهى والكتب ذاتها, وسباق نظراتنا التي تتلاقى بين فنية وأخرى وقد كنت الخاسرة دائمًا, كنت أهرب بابتسامة مترددة, خجلة, وشعور غريب بأننا على معرفة قوية ببعضنا البعض, لعلنا كنا معًا في زمن ما, عصر آخر أو حياة موازية,

كل ما أعرفه هو أن كلما مر الوقت تحولت تلك الشرائط الحمراء إلى أنسـجة تتغلغل بلا عناء إلى أوردة القلب لتصـلنا معًا, ومهما حاولنا التملص منها تعيدنا مجددًا إلى نقطة الالتقاء ذاتها, حتى أصـــبحت الصدف لقاءات مدبرة, بدأت بخطأ في خلط أكواب القهوة ..

بات كل لقاء بيننا معبرًا, رواقًا آخر يحتله ويقطف من بتلاتي بتلة ليمنحني بدلًا منها برعمًا يتفتح على يديه, كنا نتبادل النقاش حول الكتب وكان يدهشني بأفكاره الصادعة, كان ثوريًا أمام الكلمات وكثيرًا ما كان يسخر ويخبرني أن الكتب لها أصوات وأرواح بعضها:

_ "وئد قبل أن يولد "

وقد اعتنقت مذاهبه في الحياة، في الكتب، وفي الحب.. ثلاثة أعوام كنا نتلاقى بحجج وهمية نبرر بها تصرفاتنا ومشاعرنا غير المفهومة، تلك التي أرجحتنا فوق هضـــاب من الغيوم الوردية, وفي ذلك النهار انتفض من مقعده بالمقهى أمام صـــدمتي وتحديق البعض بنا وأخبرني بصوت قاطع هادر :

_" فلنتوقف عن المراوغة يا أثير، تبا لكِ، أنا أحبكِ، ألا تدركين! تزوجيني فأنا لن أنتظر أكثر من هذا، أتفهمين!

لم أكن أتخيل أن يأتي عرضـــه بتلك الطريقة البوهيمية، ولكن لا تسـألوني عن الحب من ثوري لم يتقن في حياته سـوى الاقتحام كما فعل بقلبي وروحي ولم أدرك الموقف، وسط إعجاب وصفير البعض سـقطت في هسـتيريا غريبة من الضـحك, ضـحكت كثيرًا على هيئته القتالية, المتحفزة كمن يعرض الحرب لا الحب والفرق بينهما راءًا

بدأ بها اسمه "رعد ", ومن يستطيع الصمود أمام الرعد ؟!, وافقت ووقتها فقط استرخت ملامحه وانتبه لما فعله، بدا وكأنه يحارب حتى لا يجاريني في الضحك واكتفى بانحناءة تمثيلية ساخرة للجمهور المتابع, جلس وأمسك بأناملي بين أنامله وأومأ برأسه لأقترب منه أكثر كمن يريد الهمس سرًا وعندما اقتربت قال :

_"كيف للأثير أن تهزم الرعد ؟!، أحبكِ مجنونتي الصغيرة "

شفتاه داعبت باطن أناملي بقبلة طويلة شعرت فيها بأنني مقدسة، بينما حوارٌ سري يجري بين أعيننا, وحيدان في عالمنا.

أتى زواجنا سريعًا, جنونيًا, حينها سرقني وسط ذهول الحضور وحملني بفستاني الأبيض إلى السيارة التي تنتظرنا بينما يودعونا بهتافات وصفير وتصفيق قوي وضحكات قد جعلتني أنطوي في صدره خجلة بينما هو شاركهم الضحك, لازالت تلك الأصوات تصدح في أذني حتى الآن, لازال يتردد صداها المطرِب كسيمفونية عزبة لم يخلق مثلها قط ..والآن أنا امرأته, فتاته الصغيرة وعشيقته الشرعية كما اعتاد أن يهمس لي, تحركت بخفة أتسلل مرغمة بعيدًا عن رائحته الدافئة وعطره الذي لا يزال عالقًا فوق كل أنش من جسدي, وقفت أتأمل بعثرته المحببة وخصلاته المتمردة, ذقنه المشذب وجسده الضخم المنحوت الذي ترك الفراش بأكمله واختار البؤرة الوحيدة التي استوطنها جسدي الصغير ليفرض عليها استعماره, ولكن عينيَّ توقفت بزهو ورضى أمام دبلته الفضية في بنصره الأيسر, ابتسمت لنفسي, أهنئها على زوجها الوسيم والوقح جدًا عندما يرغب بذلك, أغمض عينيَّ عن ذكرى كل تلك الليالي

بيننا لقد مر على زواجنا ثلاثة أشـهر ولازلت أشـعر في كل مرة وبين ذراعيه بأني بتول لم تذق طعم التفاحة المحرمة, سرت على أطراف أصـابعي لآخذ حمامًا سريعًا وبنفس الخفة انتقلت إلى حيث الخزانة ألتقط الثياب بعشوائية وسرعة وأنا أنظر إليه من فترة لأخرى لأتأكد من أنني لم أزعج غفوته, أرتدي بعجالة وأبتسـم كمراهقة تفر من منزلها خفية, ولكنه سيتفهم عندما يعلم بأن حواءه تمتلك ما سوف يكلل عشقهما ولحظاتهما المحمومة, تحتاج فقط إلى إثبات ذلك..

ودعته بنظرة أخيرة بعد أن فحصت هيئتي الجديدة، ذلك الانعكاس السعيد لصورتي في المرآة، شيءٌ ما لم يعد يشبهني ولكنني سعيدة، سـعيدة جدًا بتلك التي أراها لأول مرة، خرجت ومن حسـن حظي وجدت سيارة أجرة فارغة:

-" المركز الطبي إذا سمحت "..

تحركت السيارة بسرعة متوسطة لشدة الغيوم والضباب المحيط بالأجواء، إنه الشتاء، دائمًا ما يتعلق هذا الفصل بالحكايات وحكايتي كانت جزءًا منه.. لقاءنا، زواجنا، والآن.. رفعت عيني إلى الزجاج المغلق أرى انعكاسي المتوتر، أتسـاءل إن كان هذا هو شـعور المرأة عندما تمتلك جزءًا أخر بداخلها، كائنًا صـغيرًا خلق من العشـق والجنون، أمرر أناملي فوقه وأعلم بأنه يسكن هناك، في أحشائي......

_"أنا أيضا يا صـغيري أتلهف لإثبات وجودك، أتحرق إلى زف الخبر إلى أبيك، كم أتوق لرؤية نسـخة أخرى منه مصـغرة، نسـخة تجمع بين نبضاتي وجيناته، دعنا ننتظر يا صغيري "

أبتسـم له ولنفسي- ولمخيلتي الخصـبة في اسـتشـعار جنس الجنين:

_ "أنه ولد "

أشــعر بذلك.. أتابع موجة الغيوم التي رافقت الســيارة في ســيرها وأحاول تخيل ســيناريو آخر ضــمن عشرـات الســيناريوهات التي نســجتها عن رد فعله عندما يعلم، كم تخيلت هذا مرارًا كثيرة حتى قبل زواجنا

توقفت السـيارة أخيرًا أمام مبنى أبيض شـاهقًا، زينته لوحة عريضـة زرقاء مخطوط فوقها _المركز الطبي العام _ ترجلت بأنفاس مثارة وطردت ما تبقى من قلق في زفير طويل حار تســلل إلى الأعلى ببخار رمادي، شــققت طريقي، أضــم معطفي إليَّ وأحكم غلقه على طفلي الحبيب، آكلة المسافات بلهفة مشوبة برجفة توتر

_" إنها فقط مرتي الأولى، ليس هناك شيء يدعو إلى القلق"..

أخبرت نفسي بذلك:

_ " وفي المرة القادمة التي آتي فيها إلى هنا ســأكون متشــبثة بذراع رعد، أبيكَ، أعدكَ يا صغيري"

كانت الإجراءات سريعة وسـلسـة بفضـل حجزي المسـبق في قسـم النسـاء والتوليد, شـعرت بنظرات الممرضـات الغريبة مسـلطة عليَّ وغمغمتهن تلاحقني أو ..لعلي تخيلت ذلك, فكل شيء يبدو مهيبًا هنا, حتى عندما جلسـت في قاعة الانتظار بين مجموعة من النسـوة الحوامل شــعرت بأنني فردٌ مختلف, قطعة ناشز بينهن, رأيت بروز

تكوير حمل بعضـهن بشـكل لافت, وأخريات ضـممن إلى صـدرهن أطفالًا حديثي الولادة, وامرأة توبخ ابنها الذي تخطى الرابعة لجلبة حركتـه, أمرر عينيَّ بين هـذه وتلـك وأرى أنـاملهن تحيط أجنتهنَّ بمحبة وخوف بينما أنا لازلت أملك معدة مسـطحة, حركتُ أناملي فوقها بابتســامة خافتة وقلب ينتظر بشــوق امتلاك ذاك التكوير الذي لا يشـبه أي شيء آخر, لن تهتمي كثيرًا لوصـفات الرشـاقة ولا بمظهر جســدك بقدر ما ســتتفاخرين بذلك التكوير الذي يثبت ملكيتكِ لرجل واحد, رجل تعشــقينه ويقدســكِ ليختاركِ من بين النساء جميعا ويزرع نسله فيكِ, طفل تنتظري سماع خفقاته, جزء آخر منكما ينبض بداخلكِ, أمر لا يوصف, أشبه بالمعجزة .

_ "السيدة أثير عز الدين"

وقفت بخفة ونبضـات قلبي تتسـارع، ابتسـامة لم أسـتطع كبحها وخفقة قوية شعرت بها بداخلي.

_ " لا تقلق يا صغيري، أنا هنا معك "

ربتت عليه وتبعت الممرضـــة داخل الرواق حتى غرفة الطبيبة وتركتني الأخرى لأشـــق طريقي بنفسيـ إلى الداخل, كان اســتقبال الطبيبة مريحًا ومطمئنًا حتى أنني نزعت عني قلقي وتوتري وتجاذبت معها أطراف حديث ســطحي عن الحمل قبل أن تطلب مني أن أتبعها إلى غرفة الكشــف, اســتلقيت فوق الفراش الجلدي ورفعت الشرـشــف الأبيض فوقي, بينما كانت تتحدث عن الفحص وكيف تســير الأمور فيه حتى تجعلني أكثر اســترخاءً, ولكن بدأت أشــعر بالقلق عندما توقفت عن حديثها ورفعت عينيها إلي ..لم أســتطع

تفسير تلك النظرة الغريبة وشعرت بنبضاتي تصعد إلى حلقي, غصة مُرّة تخنقني, عصرت الملاءة البيضاء بقوة بين أناملي, وأنا أراها تنزع القفازات الجلدية من يدها وتشيح بعينيها عني :

_" يمكنكِ الاعتدال.."

تحول توتري فجأة إلى خوف، كأنني سـقطت في سرداب مظلم على وشك الانهيار، أراها تهز رأسها باستهجان وتخرج بينما ضربات قلبي تثور بضجيج لاهث، رتبت ثيابي بعشوائية ويداي ترتجفان, أحاول في تلك الثواني القصـيرة تخيل ما يمكن أن تقوله الطبيبة ولكن كلا, عقلي بدا وكأنه تُرك عند ذاك السرداب المظلم, عاجزة عن التفكير .. خرجت وكأنني ألفظ من الجحيم، وقفت أمامها أنتظر بين خيوط الأمل والخوف أن تفصح عما لديها ولكنها بدت غير متعجلة بالحديث وأشارت بهدوء مهلك لأعصابي بأن أجلس:

_"من فضلك "

جلستُ راضخة وعيناي لا زالتا تأكلان حدقتيها تحاولان سبر أغوار عقلها ولكن لا يمكن أمام تلك النظرة الباردة والوجه الجامد العملي لطبيب، أن تعلم ما إذا كان سيخبرك بحتمية موتك أم سيزف إليك نبأ الشفاء, أناملي تتحرك فوق الدبلة, تحركها بقوة, بينما أصبحت دقاتي على مشارف الجنون معلقة نظراتي فوق شفتيها أنتظر أن تتحرر من لجام صمتها, دقيقة, اثنين, ثلاثة بدت أصوات عقارب الساعة قوية, إنها تنزع عييناتها وتضعهما بهدوء على المكتب وها هي شفتيها تتحرك أخيرًا ولكن لمَ يبدو الحديث مذبذبًا !, أشبه

بأســطوانة (جراما فون) ممزقة, نشــاز غير مفهوم, تقول شيء ما, شيء أعجز عن استيعابه, رأسي يلتقط بضع كلمات متفرقة :

_ " متزوجة، زوجكِ، كاذب، آنسة..!"

كلمات أشبه بالأحاجي المبعثرة:

_ "ما الذي تقوله! .."

شيءٌ ما يخنقني بقوة وكأن الغرفة امتلأت فجأة بدوامات من الغبار، وقفت وتحركتُ مبتعدة، أجرُّ حقيبتي بينما أســتمع لصــوتها الفَزِع من خلفي :

_"آنسة أثير! "..

"آنسة!"

أشعر بالعجز, قدماي تتخبطان في السير وكتفي يضرب هذا في ذاك وتلك وأصـواتهما الحانقة, الغاضـبة تشـيعني, أكاد أتعثر في خطواتي, لا أرى أمام تلك الغشـــاوة التي غيمت نظراتي شـــيئًا, لفظني الباب الرادار من المشـــفى إلى ذروة الرياح المهتاجة, ألهث وأنا أحاول دفع الأكســجين البارد إلى رئتيَّ المتوقفة, أبحث وســط الضــباب بعينيَّ التائهتين عن ســـيارة أجرة ولا أعلم كيف أو متى وقفتْ إحداهن لي, صـعدت مغيبة وقلت شيء لا أعلم ماهيته ولكنه حتمًا شيء دفعته لينطلق, ليشق طريقه بسرعة مخيفة, تتشبث يداي بقماش المقعد الجوخ وكأنني في مكوك على وشــك الارتفاع لمائة ميل فوق ســطح الأرض, وسط كتل من الغيوم أتدحرج إلى الأسفل, أرى أضواءً تتلألأ بعيدًا, أسـقط مرة تلو الأخرى بينما تتقلص المسـافة بيني وبين تلك

الأضـواء في الأسـفل, صـوت هدير السـيارة يعلو, وزمجرة عجلاتها تصدح, أصوات أخرى مختلطة تقترب, وكروح سقطت من السماء تهاديتُ بقدميَّ فوق الرصـيف الأسـفلتي, سـيارات كثيرة ممزوجة بعجيج أشـخاص متجمهرين حول دائرة تتسـع كلما ازداد عـدد المتفرجين, عينيَّ تضيع في ذاك المشهد الذي يظلله انعكاس وميض إنذار سـيارة الإسـعاف بلونيه الأزرق والأحمر يتسـاقطان فوق برك الميـاه ليتحول الوحـل الزلق إلى ألوان قوس قزح, حركـة المرور متوقفة بينما أنكمش أكثر في الزاوية, أشـاهد ما يحدث, هرولة المسـعفين هنا وهناك وصريخ إحداهن, وشرطي يمسـك بتلابيب رجل مخمور:

_ "أيها اللعين، أريت ماذا فعلت! إنه شـاب في مقتبل العمر، عريس !!"

أتابع بعينين جاحظتين وأنفاس مختنقة، دقات قلبي تصـدح بقوة كضربات طائر الطنان، عيناي تحارب لترى من بين الأقدام والحركة ذاك المسجي أرضًا, رأيت زهرة بيضاء ملقاة, مدهوسة وقد تخضبت بالدماء, أتقدم بضع خطوات, أحاول إزاحة بعض الأجساد من أمامي ولكن يدي تخترق أجسـادهم !, إنني طيف ..أسـتطيع المرور من خلالهم ورؤية ما يحدث .. عبرت الحائط البشـري بلهاث متزاحم.. ورأيته، سحابة مالحة غشيت عينيَّ الزائغة وأنا أرى نفسي ساقطة فوق جسـده المتهالك أرضًا بفسـتاني الأبيض، أسـحب رأسـه إلى حضني أصرخ بهم..

_"فليسعفنا أحد! "

أهز رأسه، وأصرخ به:

_" أفق، أرجوك، إنه يوم زفافنا, لا يجب أن ترحل هكذا, لن أسمح بأن تضيع مني, أتفهم "

تتحدث، تبكي وتصرخ، أما أنا فانحنيت ألتقط تلك الوردة البيضاء وأمدها إليها، إلى شبيهتي، وعندما رفعت عينيها المغرورقين بالدموع في صدمة ونظرت إليَّ نطقت ثلاثة أحرف فقط، توقفت عندهم الحركة والزمن, ثلاثة أحرف بسيطة يمكن أن تبدأ بهم قصة ويمكن أن تنتهي ...

" عشق أو موت"

أغمضت عينيَّ بقوة، أنفاسي تحترق، أحاول إخراس الأصوات، بينما جسدي يرتعش، يحتضر.. أشعر بالعرق يبلل جبهتي وعنقي، زفراتي محمومة، ثلاثة أحرف فقط..

_"سيدتي، سيدتي.. لقد وصلنا"

نظرة السائق المرتابة جعلتني أتساءل إن كان رأى ما رأيت؟! ولكن بنفس التيه خرجت من السيارة، أشعر بحرقة في حلقي، أهرول وأبتعد عن كل تلك الصور والأصوات، وشفتاي ترددان الأحرف الثلاثة.. يداي تسقط فوق الجرس أتجاهل وجود المفاتيح داخل حقيبتي، أضغط بجنون علَّ صوت الطنين يخرس تلك الأصوات.. أنتظره، أنتظر أن يفتح ولكن رأيت وجهًا آخر، خطَّ الحزن والوهن خطوطه فوق ملامحها، استقبلني سواد ملابسها القاتم كان أشبه بملزمة تسحق روحي وتطحن رفات الأمل بداخلي

ـ"إلى أين ذهبتِ يا أثير، لقد متُ قلقًا، ابنتي ما بكِ ؟!"

أتأرجح في دخولي، أبحث عنه بعينيَّ المضطربتين، عليه أن يفسر لي ما يحدث، عليه أن ينفي كل تلك الأكاذيب، أن يخبرني أن ذلك ليس سـوى كابوس يتكرر، أفتش في كل ركن ولا أثر له, أهرول إلى غرفتنا, أدفع الباب بقوة وأراه هناك واقفًا بجوار فراشـــنا وقد وضـــع عليه وردة بيضاء رأيتها مسبقًا, يبتسم بغروره الذكوري ونظراته تشملني باشـــتياق اعرفه تمامًا.. لثلاثة أشـــهر كانت تلك النظرة لا تفارقه، كدت أن أبتســم أيضًـا وأركض إلى ذراعيه المشرـعتين أمامي تغريني على الارتماء فيهما لولا ذاك الصـوت الذي عاد إليَّ مجددًا، صـوت أصـبح واضـحًا الآن، قطع الأحجية تكتمل والصـورة تتجلى تدريجيًا أمامي وتقتل ابتسامتي في مهدها، صوت الطبيبة البارد...

ـ"أســتاذة أثير قلتِ إنك متزوجة مذ ثلاثة أشــهر!، أين زوجكِ؟! حســنًا، أنا بالفعل لا أعلم ما الذي تشــكين منه على وجه التحديد ولكن لا يمكن أن يكون ذلك حمل، وكنت لأخبركِ بأنه ربما حمل كاذب لولا أنكِ.. آنسة.. "

ذلك كذب، حتمًا كذب، أشـعر بنيران الغضـب تؤرج بداخلي، كيف له أن يبتسم هكذا؟ أن يكون هادئًا وسعيدًا بهذا القدر؟

أعصـابي تتهالك أمام هدوءه المسـتفز، لم أشـعر بنفسيـ وأنا بكل ما أحمل في قلبي له من عشق، غضب، خوف وألم.. أصرخ بهِ:

ـ" رعد عليك أن تخبرني ما الذي يحدث، عليك أن تفسرـــلي ما قالته الطبيبة، كيف ذلك؟, نحن معًا مذ ثلاثة أشـــهر, كيف يمكن أن   .."

يدٌ واهنة تسقط فوق ذراعي، تسحبني إلى حضنها بقوة وصوتها الباكي المتألم يخرج بحشرجة تمزق نياط قلبها:
_"أتوسلك يا أثير لا تفعلي هذا، لا تفعلي بنا هذا يا ابنتي، قلبي يتمزق لرؤيتك هكذا"
-"لا "
انتفضت من حضنها بالقوة ذاتها ونظرت إليها، أمسك بذراعيها وعينيَّ شاخصة في سواد حدادها، أشكوه إليها:
_" إنه لا يجيب يا أمي، رعد لا يجيب، أهو غاضب مني؟! ألانني خرجت دون علمه!، لمَ ترتدين السواد؟!! "
_"أرجوكِ يا ابنتي، لا تفطري قلبي وادعي له بالرحمة"

"الرحمة "

نظرت إليه مجددًا ووجدته ينطق الثلاثة أحرف ذاتها مبتسمًا ورأيت نفسي_ أرددها خلفه وأنا أتابع ابتسامته التي بدأت تتلاشى تدريجيًا مع علو أصوات الضجيج حولي مجددًا..

_ "مات "

صريخًا في كل مكان وتلك الصورة وسط جلبة الأبواق وتعطل الحركة, أرى نفسي جاثمة بجوار بقعة دماء دافئة تتسع وتفقد بريق لونها ببطء وجسده المسجى أرضًا ببذلة العرس وزهرة التوليب البيضاء التي انتقيتها خصيصًا له لتزين سترته أصبحت الآن مشبعة بالدماء, دماءه هو, دماء نصفي الآخر, دماء زوجي أمام الله وحبيبي الذي لم يَفِ بوعده لي, رحل وترك نقطة النهاية في منتصف السطر ما بين فراغين قد تركناهما لسرد أحلامنا فوقهما, منزلنا الدافئ,

أحاديثنا الليلية, وضحكات أطفالنا, حتى لقد اخترنا أسمائهم سويًا ولكنه رحل قبل أن يدس نسله بداخلي, تركني دون إنذار, بفستان زفاف صبغ بدمائه وقلب وسم بهِ , رحل وترك كل وعوده لي تتمزق, خاوية بلا روح, بلا صغير يشبهه يذكرني بهِ, كل ما أملك هو طيف, طيفه الذي تدثرت بهِ لثلاثة أشهر من الوهم اللذيذ, أرسم فيهم لوحة قد حلمنا بها مرارًا ولم أدرك بأنها فاسدة دونه فلم يعد لها ملامح , وبثلاثة أحرف فقط, تحولت من لوحة عشق إلى لوحة فقد.

تمت بحمد الله